

العجوز المتمرد قائد الثورة التونسية

كم من رجال منا يخوضون المعارك الحربية كالأسود، ويرون الموت في ساحة الوغى أهون من الاستسلام للأعداء.. هكذا كتب هذا الرجل المنسي عمدا- علي بن خليفة النفاتي، والذي توخى الحقبة أن تتجاهله عند تدوين تاريخ تونس المتعلق بالحقبة الاستعمارية (١٨٨١-١٩٥٦)، رغم أنه قائد الثورة الأولى ضد الاحتلال، وهي ثورة إسلامية الوجهة شهدتها تونس بمجرد توقيع الملك (الباي) على معاهدة مايو ١٨٨١ التي خولت بموجبها الإمبراطورية الفرنسية أمر الحماية على تونس، واستمرت الثورة رغم ضعف إمكاناتها ١٠ سنوات، وبدأها النفاتي وهو في الرابعة والسبعين من عمره؛ لذا لقبه الفرنسيون بـ (العجوز المتمرد).. قد يكون خطأ من قدره، لكن الأغلب أنه الإعجاب بقدرات الرجل وإصراره العنيد على مقارعة الأستعمار والانتصار لبلاده..

رجل خلدته السيرة الشعبية

البحث في سيرته مضمّن؛ لأنك بالكاد قد تجد عن الرجل سطرا أو أقل هنا أو هناك، لكنه يقيتا لم ينسَه البسطاء من الشعب التونسي، فخلده في السير والملاحم الشعبية.. لم لا وهو سليل الهالين أصحاب السيرة الشعبية الشهيرة؟
وُلد سنة ١٨٠٧ م، وتوفي ١٨٨٥، ويرجع نسبه إلى قبيلة نفات، المنحدرة من قبيلة بني سليم النجدية العربية القادمة إلى بلاد شمال أفريقيا مع الزحف الهاللي، ينتمي إلى عائلة أولاد خليفة، التي تولت حكم القبيلة على امتداد القرون الأربعة التي سبقت الاستقلال.
شب علي بن خليفة على تربية العائلات العربية التي تميزت بالترحال بين الحياة الحضرية والحياة البدوية، وفقا لفصول السنة، ليجمع بين مميزات المجتمعين من حرص على التحصيل العلمي والمعرفي، وإلمام بقواعد الحضارة والأدب، وكذا تشبث بأخلاق الفروسية وارتباط بقيم الحرية، كان يهوى حضور مجالس الشيوخ وما فيها من حكمة وتجارب وسرد للتاريخ، ولم يتشبث بحسب بالقيم

والمبادئ الإسلامية بل كان دائم السعي إلى الاطلاع على منجزات الآخر.

ولاء مطلق للخلافة العثمانية

على المستوى الإداري ترقى ابن خليفة حتى صار واليا (أعلى سلطة إدارية آنذاك)، أما على المستوى العسكري، فيذكر المؤرخون أنه وصل لأعلى رتبة عسكرية في الجيش التونسي (أمير لواء)، لقد ولى الباي (الملك التونسي) الشيخ علي بن خليفة ولاية عدة مناطق هامة آخرها الأعراض حيث أدركته الحماية الفرنسية. وعلى نحو ما يذكر المؤرخون فإن حكم الشيخ علي بن خليفة تميز بعدة أمور، أهمها:
- القضاء على الفتن الداخلية في البلاد، ومنها فتنة اليوسفية والشدادية، وهي صراع قبلي ذهب ضحيتها الآلاف.
- العدالة الاقتصادية، وذلك من خلال التقسيم العادل لإقطاعات الرعي، الذي كان يشكل العمود الفقري لاقتصاد المنطقة.
- الولاء لفكرة الوحدة الإسلامية ممثلة في الخلافة

العثمانية الإسلامية بموقف لا يلين جعله يسهم في قمع ثورة علي بن غدام، وهي ثورة محلية قامت لخلع الحكم العثماني ورموزه، ثم لم يتردد النفاتي في خلع بيعته للباي بمجرد توقيع الباي على معاهدة الحماية الفرنسية، وأطلق مقولته الشهيرة على الملأ في مقر حكمه بمدينة قابس: الآن أصبحت طاعة الباي كضرا، والتي كانت إيذانا بانطلاق الثورة ضد الغزاة الفرنسيين والباي وأعدائه معا.

الدبلوماسية والسياسة أولى الخطوات

لقد بدأت أولى خطوات ثورة الشيخ علي بن خليفة بمرحلة الإعداد لها؛ حيث بادر قائدها إلى جمع المجاهدين من مختلف القبائل وتنظيمهم في إطار موحد، وهو ما لم يكن سهل الحدوث؛ حيث كانت النزاعات القبلية طاغية، كما كانت محاولات الباي جارية -بإيعاز من سلطات الحماية الفرنسية- لاستقطاب زعماء القبائل إلى جانبه بذريعة أن مصلحة البلاد كانت تقتضي التوقيع على معاهدة الاحتلال.
توج الشيخ تحركاته باجتماع كبير عقده في مسجد عقبة بن نافع في القيروان أوائل شهر يونيو ١٨٨١، بحضور قادة

